ياعيل ألموغ *

الهجرة وما تولّده من استياء: الإسرائيليون في برلين والسياسة القومية

ملخص

تناقش هذه المقالة بعض الافتراضات الإثنية والعرقية التي ترتكز عليها النقاشات التي تتناول هجرة الإسرائيليين إلى ألمانيا مؤخرًا، ولا سيما وصف وجود الإسرائيليين في برلين على أنه يرمز دلاليًا إلى «عودة» اليهود إلى أوروبا بعد المحرقة. وتفترض المقالة أن هذا الوصف يُديم ترسيخ الصهيونية ويرسي دعائمها في التجربة التي تخوضها ذواتٌ تنحدر من أصول أوروبية. وبناءً على دراسة عدد قليل من الإشارات إلى الوجود الإسرائيلي في برلين في النصوص الأدبية التي ألّفها كُتّاب إسرائيليون ينحدرون من الشرق الأوسط في أصولهم، تتتبّع هذه المقالة الطرق التي قد تنحوها الكتابات غير الأوروبية في تحوير رواية المصالحة التي أُبرِمت بين الألمان واليهود في فترة ما بعد المحرقة وإعادة كتابتها وتبديدها من خلال إماطة اللثام عن وضع الإسرائيليين في ألمانيا بوصفهم «شرقيين»، واستجلاء التعريف الحدّي المقابل الذي يسبغ عليهم وصف «الأوروبيين» و«العرب».

مقدمة

لقد رسّخ التاريخ المعاصر سمعة ألمانيا وصيتها بوصفها بلدًا جديدًا يجذب المهاجرين ويستقبلهم، حيث ييسّر الازدهار الاقتصادي وسياسة الهجرة التي تتسم بمرونة نسبية ذلك. وقد تفوقت ألمانيا، التي باتت وجهة جذابة للقادمين الجدد، على العديد من البلدان، من قبيل إنكلترا وكندا اللتين طالما نُظر إليهما باعتبارهما بلدين من بلدان المهجر. وعلى وجه الخصوص، اجتذبت برلين طائفة متنوعة من المهاجرين، بمن فيهم عدد لا يُستهان به من الكُتّاب والفنانين الذين تبحث أعمالهم في هذا الانتقال إلى هذه

*باحثة وكاتبة تعمل في مركز أبحاث الأدب والثقافة في برلين.

تحتفظ برلين، التي تُعَدّ مركزًا من مراكز التأليف والترجمة والفن، بسمعتها وصيتها كموضع من مواضع الإبداع والازدهار: وهو موضع مشحون على نحو دراميّ فيما يتصل بأولئك المهاجرين اليهود الذين يقيمون في مدينة فاحت ذكراها بوصفها البؤرة التي انبعث منها الدمار الواسع الذي طال يهود أوروبا.

المدينة. ولم تفتأ الهوّة القائمة بين السمعة الرديئة التي وسمت ألمانيا على مدى تاريخها، والتي عُرفت بمعاداتها للأقليات – وتجسدت في ذكريات الحرب العالمية الثانية – وبين جاذبيتها للمهاجرين الذين يقيمون على أراضيها تشهد اتساعًا وتزايدًا لا يفتر.

وفي ظل هذه الظروف، بات الوجود المتنامي الذي يشهده مجتمع الإسرائيليين المقيمين في برلين محطّ انتباه وسائل الإعلام الألمانية والإسرائيلية والعالمية واهتمامها. فعلى مدى السنوات القليلة الماضية، انشغلت وسائل الإعلام الإسرائيلية والجدل العام في إسرائيل بالدور الذي تضطلع به تكاليف المعيشة فيها باعتباره يشكّل دافعًا للهجرة إلى أوروبا. ففي الأعوام الأخيرة، عملت الاحتجاجات العامة التي عمّت إسرائيل على صرف النقاش العام بعيدًا عن بؤرة اهتمامه التي ركّزت على أمن الدولة على مدى ردح طويل من الزمن إلى تسليط الضوء على تكاليف المعيشة التي ما تنفك تتزايد في البلاد. فضرورات الحياة اليومية «تتخطى» التهديد الخارجي الذي تفرضه أعمال العنف المرتبطة بمعاداة السامية ومعاداة إسرائيل. وفي إسرائيل، يثير الانطباع الذي يرى في ألمانيا وجهة جذابة للمهاجرين الاحتجاجات التي تناهض ما يسمى بانتهازية المهاجرين الإسرائيليين الذين يُتَّهَمون بـ«تناسي» الجرائم التي اقترفتها ألمانيا خلال المحرقة من أجل إشباع احتياجاتهم البسيطة والدنيوية.[1] فعلى سبيل المثال، شجب وزير المالية الإسرائيلي السابق، يائير لبيد، ما يُظهره الإسرائيليون الذين يرحلون عن إسرائيل من افتقارٍ إلى الثقة والاعتداد في النفس لأن الحياة «أسهل في ألمانيا».[2] فحسبما ورد على لسان لبيد، يدل الانتقال إلى برلين، وهي المدينة التي تجسد انعدام الأمن لليهود على مدى تاريخهم، على التنصل من التضامن القومي والتخلي عنه من أجل الراحة الاقتصادية.

ويصف الألمان والأجانب على السواء برلين، وعلى نحو ينمّ عن التحقير والازدراء في أحيان كثيرة، بأنها «فقاعة» – فهي وجهة يرغب فيها الأفراد الذين ينتمون إلى الأقليات أو أولئك الذين يتشبثون بالسياسة التابعة. وتكمن الفرضية التي نسوقها هنا في أن البنية الثقافية والمخيالية تؤدي عملها كما لو كانت نموذجًا مصغرًا يتيح نقل الهويات السياسية إلى عالم جديد وأجنبي. فمن خلال دراسة صور التمثيل الأدبية الحديثة التي تصف برلين كأنها مكان إقامة للإسرائيليين، تفترض هذه المقالة أن وصف المهاجرين الإسرائيليين على أنهم «يهربون» من بلدهم الأم تغيب عنه نقطة أساسية: فالإسرائيليون لا يتخلون، في أثناء الوقت الذي يمضونه في برلين، عن السياسية الإسرائيلية ببساطة، وإنما ينقلونها إلى سياق جديد. ويميط هذا الانزياح اللثام عن توقعات جوهرية حول حياة اليهود في الشتات في ألمانيا – الخطاب الصهيوني حول الشتات اليهودي في أوروبا وثقافة الذاكرة المهيمِنة التي تسود ألمانيا. ومن المهم أن تعريف القادمين الجدد الإسرائيليين على أنهم «شرقيون» يتعارض مع إحدى الروايات الإسرائيلية المتواترة حول اليهود الأوروبيين الذين يعودون إلى القارة العجوز بعد الصدمة التي خلّفتها المحرقة في نفوسهم. ونتتبع في القراءات التالية التي نرصد فيها النصوص الأدبية المعاصرة كيف أن الصراعات الاجتماعية والسياسية البارزة في المجتمع الإسرائيلي المعاصر – ولا سيما مواطن التوتر القائمة بين الجماعات العرقية التي ينتمي الإسرائيليون اليهود إليها – تخضع للبحث والدراسة من خلال فعل الانتقال إلى برلين أو الإقامة في هذه المدينة. كما نتتبّع الطريقة التي تُعاد فيها صياغة هذه الصراعات في حصيلة مفردات تتصل بثقافة الذاكرة الألمانية وباللقاءات التي تُعقد بين الألمان واليهود.

اليهود العرب وبوتقة برلين

تحتفظ برلين، التي تُعَدّ مركزًا من مراكز التأليف والترجمة والفن، بسمعتها وصيتها كموضع من مواضع الإبداع والازدهار: وهو موضع مشحون على نحو دراميّ فيما يتصل بأولئك المهاجرين اليهود الذين يقيمون في مدينة فاحت ذكراها بوصفها البؤرة التي انبعث منها الدمار الواسع الذي طال يهود أوروبا.

فمن خلال الإشارات المتعددة الوجوه إلى سكان برلين، تتصدى الكتابات النثرية الإسرائيلية لجدلية الضحية-المعتدي التي يستحضرها وجود الإسرائيليين في ألمانيا. وقد يفسر المرء هجرة الإسرائيليين إلى هذا البلد بوصفه فعلًا ينمّ عن «عودة» الضحايا، حيث يصنَّف هذا الفعل بأنه اهتمام ألماني حديث العهد نشأ في فترة ما بعد المحرقة في اليهودية من جانب، وبوصفه إعادة لتأسيس الشتات اليهودي في أوروبا في مرحلة ما قبل المحرقة من جانب آخر. ومع ذلك، ففي حالة عدد ليس بالقليل من الإسرائيليين، يُفترض أن

الشعور بالذنب الذي جرّبه اليهود في تواصلهم مع الألمان المحليين يعكس الذكريات الحديثة التي تولدت لدى هؤلاء الإسرائيليين حول الأدوار التي اضطلعوا بها في الاحتلال العسكري لفلسطين. ويعكس هذا الشعور بالذنب التماهي مع جماعة مهيمِنة تمارس السلطة (سواء في الماضي أم في الحاضر) على أقلية قومية. فبالنسبة للشخصيات الألمانية في الأدب الإسرائيلي، يصنع الذنب الانتماء إلى الهيمنة القومية، ويشكّل الطريقة التي يؤدي فيها التعاطي مع ذاكرة المحرقة عمله كما لو كان يعيد التأكيد على دينامية السلطة هذه.[٣] ويمكن التصدي للثنائية المتأصلة في شخصية اليهودي – شخصيته كضحية أولًا ثم شخصيته كمواطن ينعم بالسيادة الآن – من خلال تسلسل «نهض به» ونقله إلى هذا الموقع. فالافتراض الذي يقول إن اليهودي كان فيما مضى ضحية وبات الآن جانيا محتملًا ينطوي على تمييز ثنائي بين اليهود – يشهد عليه تاريخهم الذي قاسوا فيه العنف في أوروبا – والعرب. ويسلّم هذا التمييز بأن اليهود الأشكنازيين (وهم اليهود الذين ينحدرون من أصول أوروبية) وكلاء وحيدون، حيث يرسي دعائم الرواية القومية الإسرائيلية وترسيخها على حساب تجاهل الروايات المهمشة التي يحملها اليهود المزراحيون (وهو تعريف يشير في العادة إلى اليهود الذين لا ينحدرون من أوروبا في أصولهم، ولا سيما أولئك الذين يأتون من الشرق الأوسط).[٤]

ويقدم الكاتب ماطي شموئيلوف، وهو كاتب إسرائيلي يتخذ من برلين مقرًا له، في مجموعة القصص القصيرة التي نشرها مؤخرًا، عدة نصوص تتضمن راويًا يصف نفسه بأنه ذاتٌ هامشية في إسرائيل ومنبوذ من الرواية التي تكرسها البلاد للمهاجرين منها. ويسهب الكتاب النثري الأول الذي نشره شموئيلوف في تقديم صورة مفصلة للتجارب التي يخوضها إسرائيلي مزراحي يهاجر إلى برلين لأسباب من بينهما الصعوبات الاقتصادية في إسرائيل (حيث يفوق تأثير الأزمات الاقتصادية التي تعصف بإسرائيل على الأقليات المهمشة تأثيرها على بقية فئات السكان بشوط بعيد). ففي مستهل إحدى هذه القصص، يفقد الراوي أحد أسنانه. وفي سياق القصة، يدرس الراوي هذه المحنة التي تلمّ به باعتبارها وسيلة تيسِّر له أن يمعن النظر في الظروف المتوافرة التي تتيح له أن يهاجر إلى برلين:

> أسير داخل قطار سريع في طريق عودتي إلى البيت. وأقترب من أن أسمح لنفسي بأن أخطئ في محطات الوقوف. إنني ألعنُ الهجرة وكل الصعوبات التي تحملها. أشعر أن المدينة تقف في وجهي. وأنه علي أن أقاتلها لكي تمضي قُدمًا إلى مكان ما. [...] ماذا سيحصل في المستقبل عندما يسوء شيء آخر، من أين سأحصل على مبالغ طائلة من المال الضروري لكي أعيش كمنفيّ عراقي في مدينة أوروبية (شموئيلوف، ص. ٢٨٨).

وتنطوي هذه الصورة المشحونة التي تصور يهوديًا يسافر على متن قطار في ألمانيا ويتحدث عما يعتمل في نفسه من توتر وهواجس على انتقالية درامية عندما يتبدى، في نهاية الفقرة، أن جوهر انعدام الأمن لدى الراوي لا ينبع من يهوديته، بل من أصوله العربية. وفي الوقت نفسه، يبحث المشهد في وضع الراوي بصفته إسرائيليًا يهوديًا – الوضع الاجتماعي الذي دفعه إلى الهجرة. وينتج الراوي، الذي يعيش تجربة حالة متزعزعة من الانتماء إلى أقلية في أوروبا، تجربة كلّ من المزراحي والأشكنازي، حيث يشارك بذلك في رواية تشكّل وجوهًا متعددة من الهوية الإسرائيلية.

وقد يعرّف الإسرائيلي الذي يزور برلين هويته (وهنا تنطوي جميع النصوص التي تتناول هذه الظاهرة تقريبًا بطلًا ذكرًا) من ناحية انتهاك تمييز صارم بين العرب واليهود. فالكُتاب الإسرائيليون المزراحيون يضفون طابعًا إشكاليًا على التصنيف التبسيطي الذي يرونه لأنفسهم باعتبارهم ضحايا يهودًا يعودون أدراجهم إلى أوروبـا، ويشددون عوضًا عن ذلك على البحث الضروري في الهويات المتعددة في ذات الوقت الذي يسكنون فيه في الأحياء المتعددة الأعراق في برلين المعاصرة. وحسب الفرضية التي يسوقها أندرياس هويسن (Andreas Huyssen)، ينبع عجز المهاجرين الأتراك في أحد وجوهه عن المشاركة في «الماضي الألماني» من تركيز خطاب الذاكرة العامة الذي تحمله البلاد بشأن الحرب العالمية الثانية على الجناة الألمان والضحايا اليهود (Huys-sen 164). ويتردد صدى عجز المسلمين الألمان عن تخيل أنفسهم في مكان الجاني في الأدب الإسرائيلي–المزراحي في عجز اليهود الذين ينحدرون من أصول عربية عن تخيل أنفسهم يقعون في موقع الضحية.

الرواية القومية الإسرائيلية و«العودة» إلى أوروبا

في الذاكرة الجمعية الإسرائيلية، بات قدَر اليهود الألمان يشكل مثالًا على الموقف الذي يقول إن دولة إسرائيل أُقيمت من خلال الرحيل عن أوروبا – وهو موقف يعبّر عن رفض حياة اليهود أو التنصل منها في هذه القارة. ويفسر غرشوم شولم (Ger-shom Scholem)، وهو أحد المفكرين البارزين والمعروفين لدى العامة في الدولة الفتيّة، هذا الموقف (ويقرر بتفسيره هذا أنه موقف متأصل في الرواية القومية اليهودية) في الرسالة الشهيرة التي أرسلها في العام ١٩٦٤ إلى المحرر الذي كان يجمع مقالات لتأليف كتاب تذكاري للاحتفاء بمارغريت سوزمان (Marga-rete Susman). وكان هذا المحرر قد استجدى مساهمةً يعبّر فيها شولم عن شهادته على الحوار بين ألمانيا وإسرائيل. وقد استفز هذا الاستجداء شولم، الذي عنون مساهمته بدلًا من ذلك بعنوان «في مواجهة خرافة الحوار الألماني–الإسرائيلي». ويموضع النص الذي كتبه شولم شخصيات ألمانيا الحديثة واليهودي

وقد يعرّف الإسرائيلي الذي يزور برلين هويته (وهنا تنطوي جميع النصوص التي تتناول هذه الظاهرة تقريبًا بطلًا ذكرًا) من ناحية انتهاك تمييز صارم بين العرب واليهود. فالكُتاب الإسرائيليون المزراحيون يضفون طابعًا إشكاليًا على التصنيف التبسيطي الذي يرونه لأنفسهم باعتبارهم ضحايا يهودًا يعودون أدراجهم إلى أوروبا، ويشددون عوضًا عن ذلك على البحث الضروري في الهويات المتعددة في ذات الوقت الذي يسكنون فيه في الأحياء المتعددة الأعراق في برلين المعاصرة.

الحديث في حوار (فاشل) مع بعضهما بعضًا:

> أنا أنكر أنه كان هناك حتى حوار ألماني-يهودي من هذا القبيل بأي معنى أصيل من معاني هذه الكلمة، أي بوصفه ظاهرة تاريخية [...]. وللتأكيد على ذلك، فقد حاول اليهود أن يطلقوا حوارًا مع الألمان، بدءًا من جميع وجهات النظر والمواقف الممكنة، و_قد ألحّوا في طلب هذا الحوار والتمسوه واستجدوه، وكابدوا المذلة والتحديات في سبيله، وبكرامة وظفت الأصوات بدرجاتها كافة، وكرامتهم ضاعت في خضمّ ذلك كله، واليوم، عندما تبلغ السمفونية خاتمتها، فقد يكون الأوان قد آن لكي ندرس دوافعهم ونحاول أن نخرج بنقد لأصواتهم تلك. (Scholem 61)

وتركّز هذه الرسالة الحجة التي تسوقها حول تمييز ثنائي: فاليهود هم كيان متميز عن الألمان. وتعرّف الرسالة هذه الثنائية كتلك الثنائية القائمة بين خطين متوازيين لا يلتقيان أبدًا على الرغم من الجهود الحثيثة التي يبذلها اليهود لبلوغ شكل ما من أشكال المصالحة. وتصور الرسالة «الألمان» على أنهم ذاتٌ قومية رفضت الحوار مع اليهودي. وفي المقابل، تتشكل شخصية اليهودي بفعل الحوار الفاشل الذي ضاعت المحاولة التي بذلها لإطلاقه مع نظيره الألماني سدى وذهبت أدراج الرياح.

وتشكل الافتراضات التي تقوم عليها الرسالة بعض أوجه التوتر الجوهري على الصعيدين الثقافي والإثني في المجتمع الإسرائيلي المعاصر. فنص هذه الرسالة يعرّف اليهودية الإسرائيلية من منظور تجربة اليهود الألمان الذين جرى إقصاؤهم من المجتمع الأوروبي. وتقدّم التدخلات التي تفرزها ما تسمى الصور 'الشرقية' ضمن الحوار الألماني-اليهودي - سواء أكان عربيًا أم تركيًا - بنية «الشرق» بصفته موقعًا فاعلًا ضمن هويات الحياة اليهودية في ألمانيا.

وتعيد الروايات التي تصور الظاهرة المتنامية للهجرة اليهودية إلى برلين في الوقت الحاضر التأكيد على الفكرة التي ترى أن الإقصاء (والطرد) من أوروبا يعبّران عن التجربة التي شكّلت الإسرائيليين المعاصرين. وفي هذا المقام، يتضمن غلاف كتاب أوز-سالزبيرغر الذي يتناول هذه المسألة الاقتباس التالي:

> لا تفتأ أوروبا، التي شكّلتنا وعلّمتنا وجوّعتنا وقتلتنا ولفظتنا على الدوام، تنظر إلينا اليوم - يهودًا وعربًا، وسفارديين وأشكنازيين - بكل جفاء. [...] وهذا هو السبب الذي يجعل برلين، في نهاية المطاف، بوابة محتملة للولوج إلى أوروبا. وبالتحديد لأنها بوابة مظلمة حالكة الظلمة. بوابة ملطخة بالدم، مع إشارة تحذيرية معروضة فوقها. وهي تستطيع أن تركز أيضًا حنين الإسرائيليين إلى أوروبا من خلال عدسة لا نظير لها. ولا ضير أن نستهل الرحلة نحو شغفنا بأوروبا هنا.

ويتجلى هذا التصوير الرهيب الذي يصور برلين من خلال استعارة مشحونة: ففي سياق وصف أوروبا باعتبارها موضعًا «جوَّع» اليهود و«قتلهم»، تستحضر البوابة في الذاكرة الجمعية الإسرائيلية بوابة الدخول إلى أوسفيتش والإشارة التحذيرية المنصوبة فوقها. ويصير هذا الموقع، على الرغم من بعده الجغرافي، مثالًا شاهدًا على المدينة. ومما يلفت نظر المرء إدراج جميع الإسرائيليين - والعرب الإسرائيليين كذلك - باعتبارهم كيانًا واحدًا تلقى «تعليمه» على يد أوروبا، وعُذِّب على يديها، وما ينفك منجذبا إلى هذه القارة ومتعلقًا بها. وبالتالي، ينتقل الإسرائيليون الذين لا يختارون زيارة برلين، وإنما الإقامة فيها كذلك، إلى موضع يسوده الرعب. وبذلك، فهم يعودون إلى بوتقة الهوية الإسرائيلية. ومن المفارقة أنهم يربطون حياتهم، بموجب هذه الرواية، بالأيقونة الثقافية التي تجمعهم مع السكان الإسرائيليين من خلال هذا الفعل نفسه الذي يشهد رحيلهم عن إسرائيل. فكيف تُفصح النصوص عن روايات بديلة للهجرة من إسرائيل؟

حسبما يبينه حنان حيفر (Hannan Hever)، فإن رواية

الإسرائيليون في برلين: الحيزالمتوتر.

الهجرة من أوروبا إلى إسرائيل/فلسطين، والتي تشكّل الأدب العبري الحديث، تقصي الكُتاب غير الأوروبيين من الآثار الأدبية الإسرائيلية. ويفترض حيفر أن صورًا من قبيل شق عباب البحر في الطريق إلى الوطن اليهودي (وهي صور يُنظر إليها على أنها لحظات تبلغ أقصى درجات الذروة في الأدب العبري) لا يمكن تقليدها في أعمال كُتاب من المعروف أن جذورهم لا تعود إلى أوروبا (Hever 33-34). ويدل وجود ألمانيا في الأدب الإسرائيلي التابع على جانب إضافي يبعث على الاستفزاز في إعادة كتابة الرواية القومية المهيمنة التي تعتنقها البلاد. فهذا الأدب يقدم تاريخ اليهود الأوروبيين الذي يتسم بالتناقض - ورحيلهم عن أوروبا في نهاية المطاف - كما لو كان مجازًا جرى تحويره وتعديله من خلال أجندات المشروع الصهيوني في مراحله المبكرة وضروراته.

كما تعكس رواية شمعون أداف (De Urbibus Inferis) («من المدن في الأسفل») - وهي رواية أخرى لكاتب ينحدر من أصول مزراحية - الاحتمالية التي ترى أن برلين قد تعمل بمثابة موضع يمكن تخيّل تاريخ اليهود بمجمله من خلاله. وتتمحور رواية أداف حول دراسة تاريخية تشبه التحقيق، وتتناول الطوائف اليهودية المهمشة. وتصور هذه الرواية نظامًا سريًا ومستترًا في الديانة اليهودية، «زهرة يهوذا»، الموغلة في القِدم، وكذلك تأتي الرواية على هذا المنوال، حيث تناهض التيار المهيمن في الديانة اليهودية والذي يتزعمه شمعون باركوخبا (Simon bar Kokhba)، وهو حكيم أسطوري معروف على نطاق واسع. وتطرح هذه الرواية التي تتألف من ثلاثة أجزاء أن باركوخبا دبّر تدمير أولئك الذين قاوموه، وما انتهى إليه ذلك من إلحاق الهزيمة بقادة المزراحيين على يد اليهود الأشكنازيين الذين - حسبما يرِد في هذه الرواية - تولوا زمام القيادة في التقاليد اليهودية بعد ذلك. وتتوصل شخصيات الرواية، خلال إقامتها في برلين، إلى المفاتيح التي تيسر لها حل اللغز الذي يلف الطريقة التي أفضت إلى إرساء دعائم التقاليد اليهودية من خلال اضطهاد الطوائف الهامشية المرتبطة بالهوية اليهودية-العربية.

وترِد الإشارة إلى الأهمية التي تكتسيها برلين في البحث في الافتراضات التي تقع في صميم الهوية اليهودية الحديثة في السطر الأول من الرواية:

> لم يكن من الوارد أن أفكر في أنني سأستجمع قواي لكي أكمل هذا العمل، لو لم أقطن في برلين. فربما لأنني كنت على علم بأنني أتعامل للمرة الأولى مع أناس كان وجودهم يتخطى الكتابة، وأصواتهم تطالبني بأن أعدّل وجودي وأحجُر عليه، وأن أدعه يفلت هنا من عالم أولئك المليء بالأشباح، أينما كانوا، والذين ينتظرون ساعة الميلاد (أداف، ص. ٧).

فبداية الجملة توحي بأن الوقت الذي يمضيه هذا الراوي الذي يتحدث بصيغة المتكلم في برلين هو ما يمدّه بالطاقة التي يحتاج إليها لكي يؤلف كتابه. ومع ذلك، فإن نظرة متمعنة في هذه الجملة تميط اللثام عن هذا الانطباع: فمكوث الراوي في برلين لا يسمح له إلا بأن يفكر في أنه قد يملك القدرة التي يحتاج إليها لكي ينجز هذا العمل. فبرلين تصوَّر في الرواية كما لو كانت «مدينة من الأسفل»: فوصف الراوي للمدينة يسلط الضوء على جوّها الجنسي المفتوح وانحطاطها، ناهيك على الأعداد الهائلة من الزوار الإسرائيليين (الآخرين) الذين يؤمّونها.

كما تعكس رواية شمعون أداف (De Urbibus Inferis) («من المدن في الأسفل») - وهي رواية أخرى لكاتب ينحدر من أصول مزراحية - الاحتمالية التي ترى أن برلين قد تعمل بمثابة موضع يمكن تخيّل تاريخ اليهود بمجمله من خلاله. وتتمحور رواية أداف حول دراسة تاريخية تشبه التحقيق، وتتناول الطوائف اليهودية المهمشة. وتصور هذه الرواية نظامًا سريًا ومستترًا في الديانة اليهودية، «زهرة يهوذا»، الموغلة في القِدم، وكذلك تأتي الرواية على هذا المنوال، حيث تناهض التيار المهيمن في الديانة اليهودية والذي يتزعمه شمعون باركوخبا.

وفي إشارة ساخرة إلى الهوية المتعددة الثقافات التي تزخر بها المدينة، تعلِّق إحدى بطلات الرواية – وهي امرأة مزراحية تُعرف من تربيتها في بيئة يطغى عليها العوز والحرمان في بلدة صغيرة – على كروزبيرغ بقولها «بفضل الشاورما التركية ومحلات الملابس المستعملة لا يُضطر المرء إلى الذهاب إلى برلين» (١٨٣). وتُعد هذه النزعة التي تنم عن ازدراء التعددية الثقافية في شرقي برلين تهكّمية بالنظر إلى الأصول التي تنحدر منها أسرة البطلة. فخلفيتها الاجتماعية والاقتصادية تثير، في نهاية المطاف، التوتر بينها وبين حبيبها (الذي يُفترض أنه أشكنازي)، وتؤدي إلى انفصالهما بعد أن تعاشر رجلًا ألمانيًا، كما لو كان ذلك بمثابة ردة فعل على هويتها اليهودية المهمشة. فخلال هذا اللقاء القصير مع ذلك الرجل الألماني، تتعرف البطلة على تقليد «زهرة يهوذا» السري: حيث يضع شريكها الجنسي وشمًا يصوّر الرمز الغامض لهذا التقليد على صدره. وبناءً على موقف الراوي الذي يرى أن برلين تشكل موضعًا للأشباح «الذين ينتظرون ساعة الميلاد»، يبدو أن البطلة تجرب هويات بديلة تضفي طابعًا إشكاليًا على وضعها المهمش في المجتمع الإسرائيلي.

الشرقيون الرُّحَّل في أوروبا

هل يتخطى اجتراح الخيال الإمكانية المجردة ويسفر عن وجه ألمانيا بوصفها قِبلة للمهاجرين الإسرائيليين الذين ينتمون إلى ثقافة تابعة؟ تبحث النصوص الإسرائيلية المعاصرة في مشاركتها في رواية الضحية-الجاني المهيمِنة من خلال التصدي لشخصية الضحية-المعتدي التي تُعزى إلى الإسرائيليين في وجودهم في ألمانيا ومواجهتها. ففي ألمانيا، يفترض الشعور بالذنب التماهي مع جماعة مهيمنة تمارس السلطة (سواء في الماضي أم في الحاضر) على أقلية قومية. وبناءً على ذلك، يكشف المقيمون الألمان من أصول تركية عن تحيز قومي وإثني يجري إدامته وتكريسه تحت رعاية الذنب (Adelson 84).

فالإشارات التي ترد في الأدب الإسرائيلي المزراحي إلى الأقليات القومية في ألمانيا لها دلالاتها. فهي تخلق تجانسًا بين طلائع المهاجرين إلى أوروبا وبعض الإسرائيليين الذين يزورون برلين، والذين ينظرون إلى أنفسهم من خلال وجودهم في ألمانيا كما لو كانوا دخلاء على سياسة الذاكرة في بلدهم هم. ويشبه إقصاء بعض الجماعات العرقية من الرواية القومية الألمانية التوقعات المشتركة بشأن وجود الإسرائيليين في ألمانيا، بما يشمله ذلك من أقصاء الهويات النابعة من رواية اضطهاد اليهود في أوروبا. وقد تبحث الكتابات النثرية المعاصرة في روايات مشتركة تتناول زيارة ألمانيا باعتبارها فعلًا ينمّ عن «الثأر» أو «المصالحة» أو «الهروب». وفي هذه الصور التي تمثل حياة الإسرائيليين في برلين، تشكل ألمانيا موقعًا لتماهٍ هدّام وعاطفي مع الأقليات القومية في إسرائيل – ذوات مقصية من الصورة الذاتية المهيمِنة في البلاد.

شكر وتقدير

تشير الكاتبة إلى أن نسخة طويلة من هذا البحث نشرت من قبل في:
"Migration and its Discontents: Israelis in Berlin and Homeland Politics." TRANSIT: A Journal of Travel, Migration, and Multiculturalism in the German-speaking World, Vol 10, No. 1, December 2015.

كما تشير إلى أن النسخة الأصلية من البحث نشرت على شبكة الإنترنت، بعنوان («Das Unbehagen in der Diaspora: Israelis in Berlin und die Homeland-Politik»)، ونشرتها مؤسسة هنريش بول (Heinrich Böll Foundation) في يوم ٢٠ نيسان ٢٠١٥ في إضبارة خصّصتها للذكرى الخمسين لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل. والمقالة باللغة العربية هي نسخة منقحّة.

ترجمه عن الإنكليزية: ياسين السيد

الهوامش

١ دأبت الأعمال التي تتناول هجرة الإسرائيليين إلى ألمانيا، والتي تستند إلى التاريخ الشفوي في حالات كثيرة، على وصف وجود هؤلاء الإسرائيليين في تلك البلاد على أنه يتولد من موقف ما بعد الصدمة تجاه الثقافة الألمانية. وقد بات الكتاب الذي وضعته فانيا أوز-سالبيرغر في العام ٢٠٠١، وهو بعنوان (Israelis, Berlin) مثالًا معروفًا على هذا الاتجاه. وتقرّ أوز-سالبيرغر في سردها الذي يأخذ طابع كتابة المقالة بالبروز الثقافي الذي سجلته هجرة الإسرائيليين إلى المدينة عندما كانت هذه الظاهرة ظاهرة جديدة. وتثبت هذه الظاهرة، بحكم انتشارها، أن المهاجرين الإسرائيليين إلى برلين مأخوذون بعودتهم الباهرة إلى ألمانيا ومأسورون بها. وعلى هذا المنوال يستعرض عالم الاجتماع غاد يائير هذه المواضيع في الدراسة التي نشرها في العام ٢٠١٥ حول هجرة الإسرائيليين إلى ألمانيا، حيث يفترض أن حياتهم في تلك البلاد تنطوي على ارتباط لا يتناهى من الألم والصدمة بثقافة ألمانيا ولغتها.

٢ تعليق نشره على صفحته على موقع «فيسبوك»، حيث أثار ردودًا جدلية في وسائل الإعلام الإسرائيلية. انظر: TheMarker, October 1, 2013.

٣ انظر، مثلًا، مجموعة القصص القصيرة التي نشرت مؤخرًا باللغتين الألمانية والعبرية معًا، وهي بعنوان ((Won't Forget, Go Out Dancing (2015)، حيث تقدم نصوصًا كتبها مؤلفون إسرائيليون وألمان حول التجارب التي عاشوها، كل في بلد الآخر.

٤ في اللغة العبرية الحديثة، تشير فئة «المزراحيين» إلى اليهود الذين تعود أصولهم إلى بلدان من قبيل العراق وإيران واليمن والمغرب. وللاطلاع على مواطن التوتر القائمة بين الكُتاب المزراحيين وآثار الأدب العبري الحديث - انظر الدراسة الشاملة التي نشرها ليفي مؤخرًا، والتي تستند إلى تماهي اليهود المزراحيين بوصفهم «عربًا». ويستعرض ليفي في مؤلفه تهميش كتابات المزراحيين باعتبارها أساسية في آثار الأدب العبري الحديث (Levy 60-102). وحسبما يرى هاليفي-وايز، «في إسرائيل، حيث يمثل المزراحيون أقلية ثقافية - على الرغم من أنهم لا يشكلون أقلية من الناحية الديمغرافية - تجد الثقافة المزراحية ما يعززها في النضال الذي يخوضه هؤلاء المزراحيون في سبيل المحافظة على خلفية اليهود الذين ينحدرون من البلدان العربية وإضفاء صفة شرعية عليها في مواجهة أيديولوجيا تنطوي على معايير اجتماعية وأخلاقية وفنية مسبقة تسم سلوك المزراحيين» (Halevi-Wise 49).

مراجع

أداف، شمعون. من المدن في الأسفل، يهودا: دار كينيريت، زمورا-بيطان للنشر، ٢٠١٢. [بالعبرية]

عوز-سالزبيرغر، فانيا. الإسرائيليون، برلين، القدس: دار كيتر للنشر، ٢٠٠١. [بالعبرية]

شموئيلوف، ماطي. بقايا كتاب ملعون، أور يهودا: دار كينيريت، زمورا-بيطان للنشر، ٢٠١٤ [بالعبرية]

يائير، غاد. ليس الحب عمليًا: نظرة الإسرائيليين إلى ألمانيا، تل أبيب: دار هاكيبوتس هامئوحاد للنشر، ٢٠١٥ [بالعبرية]

كرون، نوربرت وعميحاي شاليف (محرران). لن تنسى، اخرج وارقص، تل أبيب: دار علمور للنشر، ٢٠١٥ [بالعبرية]

Adelson, Leslie A. The Turkish Turn in Contemporary German Literature: Toward a New Critical Grammar of Migration. Houndsmills: Palgrave Macmillan, 2005.

Gutwein, Daniel. "The Privatization of the Holocaust: Memory, Historiography, and Politics." Israel Studies, Vol. 14, No. 1, (Spring, 2009): 36-64.

Hever, Hannah. "We have not arrived from the sea: a Mizrahi literary geography." Social Identities 10, no. 1 (2004): 31-51.

Huyssen, Andreas. "Diaspora and Nation: Migration into Other Pasts." New German Critique, No. 88 (2003): 147-164.

Levy, Lital. Poetic Trespass: Writing between Hebrew and Arabic in Israel/Palestine. Princeton: Princeton University Press. 2014.

Scholem, Gershom. "Against the Myth of the German-Jewish Dialogue." On Jews and Judaism in Crisis: Selected Essays, 61-64. New York: Schocken, 1976.